مقدمة العقد الفريد

كثيراً ما نغفل في مطالعتنا للكتب النظر في مقدمات هـذه الكتب فنقع في أمور لا ينبغي لنا أن نقع في أمثالها ، فقد سمعت من يعترض على صاحب كتاب الأغاني ويتهمه بالتعصب لأنه لم يدوّن تراجم بعض الشعراء على أن صاحب الأغاني قد ألّف كتابه ليجمع فيه ما حضره وأمكنه جمعه من الأغاني العربية ، قديمها وحديثها ، هذه هي غاية الكتاب ، فاذا كان لقائل الشعر الذي يغنّى به أو لمغنيه أو لصانع لحنه وطريقته أو للسبب الذي من أجله قيل الشعر أو صُنع اللحن خبر يستفاد ويحسن بذكره ذكر الصوت معه أشار اليه ، واذا لم يكن لهذا كله خبر يستفاد أهمله ، هذا ما ذكره في مقدمته ، فاذا لم يدوّن تراجم بعض الشعراء فمعنى هذا ان هؤلاء الشعراء ليس لهم شعر يغنّى به واذا لم يكن لهم مثل هذا الشعر فهو قد تخطّى تراجمهم في كتابه ، فلو قرأنا مقدمة كتاب الأغاني قبل الاعتراض عليه لما اعترضنا .

وقد نقع في قريب من هذا الخطأ في حكمنا على مقامات الحريري ، فقد نظن أن صاحب المقامات قد ضمّن كتابه جدّ القول وهزله ورقيق اللفظ وجزله وغرر البيان ودرره ومُلح الأدب ونوادره ووشّحه بالآيات ومحاسن الكنايات ورصّعه بالأمثال العربية واللطائف الأدبية والأحاجي النحوية والفتاوي اللغوية والرسائل المبتكرة والخطب المحبّرة والمواعظ المبكية والأضاحيك الملهية ، قد نظن ان صاحب المقامات اقتصر على هـذا التضمين والتوشيح والترصيع أي على الفن وحدّه وأهمل شيئاً آخر وراء هذا الفن وهو التنبيه والتهذيب .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

فلو قرأنا مقدمة المقامات قبل قراءة المقامات نفسها لعرفنا أن صاحبها جمع فيها بين غايتين : غاية الفن وغاية التنبيه والتهذيب .

هذا ما يحملنا على أن نقرأ مقدمات الكتب قبل قراءة هذه الكتب لأنها تدلنا في بعض الأحيان على السبب الذي من أجله عملت هذه الكتب وعلى طريقة أصحابها فيها أو على أمور ثانية من هذا الشكل .

فما هي الأمور التي نهتدي اليها في دراسة مقدمة العقد الفريد .

اذا تجاوزنا البسملة والحمدلة وجدنا أن مقدمة العقد الفريد اشتملت على توضيح غاية الأدباء وعلى الموازنة بين المتقدمين والمتأخرين وعلى مصادر الكتاب وعلى طريقة صاحبه في التأليف وعلى أجزاء كتابه .

يقول ابن عبد ربه في مقدمته :

« وبعد فان أهل كل طبقة وجهابذة كل أمة قد تكلموا في الأدب وتفلسفوا في العلوم على كل لسان ومع كل زمان وان كل متكلم منهم قد استفرغ غايته وبذل مجهوده في اختصار بديع معاني المتقدمين واختيار جواهر ألفاظ السالفين وأكثروا في ذلك حتى احتاج المختصر منها الى اختصار والمتخير الى اختيار» .

نجد أن ابن عبد ربه في هذا الجزء من مقدمته قد أوضح غاية الذين تكلموا في الأدب ، ماهي هذه الغاية : اختصار بديع معاني المتقدمين واختيار جواهر ألفاظ السالفين ، هذا هو محور الأدب في عصر ابن عبد ربه ، الا أن صاحب العقد الفريد لم يختصّ بهذا الحكم العرب وحدهم وانما أطلق القول إطلاقاً فقال : إن أهل كل طبقة وجهابذة كل أمة ... فان قوله : ان أهل كل طبقة قد يخلو من شيء من دقة التعبير ، فاذا اعتبرنا الأمة طبقات : طبقة النجّارين والحدّادين والخيّاطين وغيرهم استنبطنا من كلام ابن عبد ربه ان أهل كل طبقة من هذه الطبقات قد تكلموا في الأدب وما نظن ان صاحب العقد الفريد

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

يرمي الى شيء من ذلك وانما الذي يريد أن يقوله على ما نعتقد ان أهل كل طبقة من طبقات الأدباء في الأمم ، وعلى هذا الوجه احتاج كلامه الى بعض الدقة ، ثم رأيناه قد أطلق القول إطلاقاً فقال : ان جهابذة كل أمةٍ ... فهل كان واقفاً على لغات الأمم في عصره حتى يحكم مثل هذا الحكم أم جازف بالتعبير مجازفة وهو لا يريد إلاّ العرب فاذا كان الأمر الأول فهو مستغرب جداً ، واذا كان الأمر الثاني فان كلامه كما قلت يفتقر الى الدقة ، وبعد هذا كله أصحيح ان جهابذة كل أمة قد بذلوا مجهودهم في اختصار بديع معاني من تقدمهم واختيار جواهر ألفاظ من سلف ، فهذا حكم عام ما نظنّ انه مؤيد ببعض الحجج والبراهين ، وعلى كل حالٍ فالذي نستطيع أن نستخرجه من تضاعيف هذا الجزء من مقدمة العقد الفريد ان الأدباء في عصر ابن عبد ربهٍ كانوا اذا تكلموا في الأدب يختصرون معاني المتقدمين ويختارون ألفاظ السالفين وهذا صحيح من بعض الوجوه لأن كتب أدبنا متشابهة أو متقاربة في هذا المعنى .

اذا وضّح ابن عبد ربه في الجزء الأول من مقدمته غاية الذين تكلموا في الأدب فقد وازن في الجزء الثاني بين الأولين والآخرين من الأدباء فقال :

« ثم إني رأيت آخر كل طبقة وواضعي كل حكمة ومؤلفي كل أدب أعذب ألفاظاً وأسهل بنية وأحكم مذهباً وأوضح طريقة من الأول لأنه ناقض متعقب والأول بادئ متقدم ، فلينظر الناظر الى الأوضاع المحكمة والكتب المترجمة بعين إنصاف ثم يجعل عقله حكماً عادلاً قاطعاً فعند ذلك يعلم أنها شجرة باسقة الفرع طيبة المنبت ذكيّة التربة يانعة الثمرة ، فمن أخذ بنصيبه منها كان على إرث من النبوّة ومنهاج من الحكمة لا يستوحش صاحبه ولا يضل من تمسّك به » .

وازن ابن عبد ربه في هذا الكلام بين المتقدمين والمتأخرين ففضّل الآخرين على الأولين في الأمور الآتية : في عذوبة اللفظ وسهولة البنية وإحكام المذهب

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ووضوح الطريقة ، هذه هي عناصر التفضيل الأربعة في نظر صاحب العقد الفريد ، واذا دققنا في هذه العناصر رأينا ان ابن عبد ربه يدخل في جملة النقّاد الذين يهمهم الفنُّ قبل أن يهمهم موضوع هذا الفن فقد أشار في التفضيل الى فضائل اللفظ ولم يشر الى فضائل المعنى وعلى هذا الرأي كان أكثر النقّاد في عصره وقبل عصره وقد شغلت قضية المتقدمين والمتأخرين أذهان أدبائنا في الماضي فجالوا فيها كل مجال ونحن لا ننسى في هذا الباب كلام ابن قتيبة في مقدمة الشعر والشعراء وكلام ابن فارس في كتابه الصاحبي ، فابن عبد ربه من النقّاد الذين مالوا الى المتأخرين ففضّلهم على المتقدمين في بعض خصائص اللفظ وبيّن سبب التفضيل ، وهذا هو السبب : ان المتأخر ناقض لأقوال من تقدمه متعقب لهذه الأقوال وان المتقدم بادئ .

وبعد أن فرغ صاحب العقد الفريد من هذه الموازنة بين الأولين والآخرين رغب الى القارئ أن ينظر الى ثمرات القرائح ونتائج الخواطر نظرة إنصاف وأن يحكّم عقله في هذه النظرة .

واذا انتقلنا من هذين القسمين من أقسام مقدمة العقد الفريد الى القسم الثالث وجدنا ان صاحب الكتاب قد دخل في موضوع كتابه فأشار الى مصادر هذا الكتاب فقال :

«وقد ألّفتُ هذا الكتاب وتخيّرت جواهره من متخيَّر جواهر الأدب ومحصول جوامع البيان فكان جوهر الجوهر ولباب اللباب وانما لي فيه تأليف الاختيار وحسن الاختصار وفرش لدور كل كتاب وما سواه فمأخوذ من أفواه العلماء ومأثور عن الحكماء والأدباء واختيار الكلام أصعب من تأليفه وقد قالوا : اختيار الرجل وافد عقله وقال الشاعر :

قد عرفناك باختيارك اذ كا ن دليلاً على اللبيب اختياره

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

وقال أفلاطون : عقول الناس مدوّنة في أطراف أفلامهم وظاهرة في حسن اختيارهم» .

يدلنا هذا الكلام على مصادر العقد الفريد ، فان مادته مأخوذة من أفواه العلماء ومأثورة عن الحكماء والأدباء فابن عبد ربه ليس له فيه الاّ الاختيار وحسن الاختصار ولهذا نجده قد أسهب في مدح حسن الاختيار وهو يرمي في هذا الاسهاب الى مدح نفسه حتى اعتبر كتابه جوهر الجوهر ولباب اللباب ، ولكن ما هي طريقته في الاختيار والاختصار ، انه لم يغفل عن توضيح هذه الطريقة فقد قال في الجزء الرابع من مقدمته :

«فتطلبت نظائر الكلام وأشكال المعاني وجواهر الحكم وضروب الأدب وتوادر الأمثال ثم قرنت كل جنس الى جنسه فجعلته باباً على حدته ليستدل الطالب للخبر على موضعه من الكتاب ونظيره من كل باب» .

من هذا يتبين لنا انه رتّب كتابه ترتيباً ولم يجعله فوضى فكان مثلاً اذا بحث عن الخطب جمع طائفة من خطب العرب في بابٍ واحدٍ حتى يكون للقارئ فكر عام فيها وكذلك فعل في كل باب من أبواب كتابه فهو لا يبحث في باب الحروب عن العلم والأدب ولا يبحث في باب العلم والأدب عن الخلفاء وتواريخهم وهذا ترتيب حسن يسهّل للقارئ قراءة الكتاب ، كان ابن عبد ربه قبل هذا الكلام لا يذكر في مقدمته من الأدب الاّ عذوبة اللفظ وسهولة البنية واحكام المذهب ووضوح الطريقة أما الآن فقد رأيناه يشير الى المعاني والحكم والأمثال ، على انه لا يلبث بعد هذه الاشارة أن يعود الى مذهبه في الفن فيذكر ما يهمه من هذه المعاني والحكم والأمثال أي من هذه الأخبار والآثار :

« وقصدت من جملة الأخبار وفنون الآثار الى أشرفها جوهراً وأظهرها رونقاً وألطفها معنى وأجزلها لفظاً وأحسنها ديباجة وأكثرها طلاوة وحلاوة

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

آخذاً بقول الله تبارك وتعالى : الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه » .

فابن عبد ربه يهمه من الأخبار التي اختارها والآثار التي اختصرها شرف الجوهر وظهور الرونق وجزالة اللفظ وحسن الديباجة وكثرة الطلاوة والحلاوة ، وهذه أمور صلتها بالفن نفسه فكأنه لم يؤلف كتابه الا للترويض على هذا الفن .

وقد جرى في مقدمته على قاعدة معروفة فهو اذا قذف برأي من الآراء أيّده باستشهادات شتّى فانه لما قال في كتابه ان له فيه تأليف الاختيار جاء بكلام يدل على حسن الاختيار وموقعه ولما أشار الى مذهبه في تفضيل شرف الجوهر وظهور الرونق وجزالة اللفظ وحسن الديباجة وكثرة الطلاوة والحلاوة استشهد بآية من القرآن الكريم : الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه ، وبكلام يحيى بن خالد : يكتبون أحسن ما يسمعون ويحفظون أحسن ما يكتبون ويتحدثون بأحسن ما يحفظون كما استشهد بكلام طائفة من أهل العلم والأدب .

ونراه في هذا الجزء نفسه من مقدمته يستمر في توضيح طريقته في تأليف كتابه ، من هذه الطريقة حذف الأسانيد :

« وحذفت الأسانيد من أكثر الأخبار طلباً للاستخفاف والايجاز وهرباً من التثقيل والتطويل لأنها أخبار ممتعة وحكم ونوادر لا ينفعها الاسناد باتصاله ولا يضرها ما حذف منها وقد كان بعضهم يحذف اسناد الحديث من سنّة متبعة وشريعة مفروضة فكيف لا يحذفه من نادرة شاردة ومثل سائر وخبر مستظرف ، سأل حفص بن غياث الأعمش عن اسناد حديث فأخذ بحلقه وأسنده الى حائط وقال : هذا إسناده ! وحدّث ابن السمّاك بحديث فقيل له : ما إسناده قال : هو من المرسلات عُرْفاً ، وحدّث الحسن البصري بحديث فقيل له : يا أبا سعيد ! ممّن ، قال : وما تصنع بممّن يا ابن أخي ! أما أنت فنالتك موعظته وقامت عليك حجته » .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

درج كثير من رجال الأدب في الماضي على ذكر الأسانيد في أخبارهم وآثارهم حتى تتم الثقة بهذه الأخبار والآثار وعلى قدر الثقة بالأسانيد تكون الثقة بالروايات والحكايات واذا رجعنا الى كتاب الأغاني وجدنا صاحبه يهتم بالأسانيد الاهتمام كله فيخطّيء بعض الرواة ويطعن على بعضهم حرصاً على الحقيقة أما ابن عبد ربه فالذي يهمه على ما يظهر انما هو ما يقال لا من يقول فكأنه جمع لنا هذه الجملة الرائعة من جواهر الحكم وضروب الأدب ونوادر الأمثال حتى تحصل لنا ثقافة أدبية تامة ، وسواء عليه بعد ذلك أكانت هذه الحكم وهذه الامثال وهذا الأدب مأخوذة من فلان من الرواة أم من فلان فنحن اذا قرأنا كتاب العقد الفريد فلا نبالي بصحة ما جاء فيه بقدر ما نبالي بروعته وحسنه ، نستنبط من هذا انا اذا رجعنا الى العقد الفريد للاستشهاد بخبر من أخباره أو بأثر من آثاره لزمنا التوثق من صحة هذا الخبر وهذا الأثر ووجب علينا أن ننصرف الى الفن في رواية الأخبار والآثار أكثر من انصرافنا الى حقيقتها ، وليس معنى هذا ان ما جاء في العقد الفريد من حكم وأمثال وأدب انما هو منحرف عن الحقيقة ولكن معناه انه يلزمنا الشك فيها قبل كل شيء حتى نخلص من هذا الشك الى اليقين .

ولقد ختم ابن عبد ربه توضيح طريقته في تأليف كتابه بالكلام الآتي :

« وقد نظرت في بعض الكتب الموضوعة فوجدتها غير متفرقة في فنون الأخبار ولا جامعة لجمل الآثار فجلعت هذا الكتاب كافياً جامعاً لأكثر المعاني التي تجري على أفواه العامة والخاصة وتدور على ألسنة الملوك والسوقة وحليت كل كتاب منها بشواهد من الشعر تجانس الأخبار في معانيها وتوافقها في مذاهبها وقرنت بها غرائب من شعري ليعلم الناظر في كتابنا هذا ان لمغربنا على قاصيته ويلدنا على انقطاعه حظاً من المنظوم والمنثور » .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

يدلنا الصدر الأول من هذا الكلام على ان صاحب العقد الفريد توخّى في تأليف كتابه تعميم الثقافة الأدبية التي كانت أصولها مطلوبة في عصره ، فهو لم يجمع الأخبار والآثار لطبقة دون طبقة ولا لفئة دون فئة وانما جمعها للعامة والخاصة وللملوك والسوقة حتى ينشر الثقافة الأدبية ومثله في عصرنا هذا كمثل الذين يكتبون في مبادئ العلوم أو الفلسفة بلغة سهلة بسيطة حتى تدخل هذه المبادئ في أذهان الناس كلهم ، فغايته تعميم الأدب ولما كان للشعر مقام أول في الأدب حلّى كل جزء من أجزاء كتابه بشواهد من هذا الشعر من جنس الأخبار والآثار التي يرويها .

ولكن الشيء المستغرب في هذا كله أن يذكر شعره الى جنب الأشعار التي يرويها لأن المستحسن في مثل هذا الباب أن ينسى المؤلف شعره اذا كان شاعراً وقد وقع في مثل هذا الأمر ابو هلال العسكري في كتاب الصناعتين فكان اذا روى شعراً لأمثال جرير والفرزدق والأخطل وأبي تمام والبحتري وغيرهم من أمراء الشعر قرن هذه الرواية بشعره فأحسّ القارئ بضعف هذا الشعر اذا قيس بشعر أئمة الشعر على أن شعر ابن عبد ربه لا يشبه بشعر العسكري فانه شاعر مطبوع .

وأخيراً نصل في منتهى المقدمة الى تسمية الكتاب الذي ألّفه ابن عبد ربه والى أجزاء هذا الكتاب :

«وسميته : كتاب العقد الفريد لما فيه من مختلف جواهر الكلام مع دقة المسلك وحسن النظام وجزأته على خمسة وعشرين كتاباً ، كل كتاب منها جزآن فتلك خمسون جزءاً في خمسة وعشرين كتاباً قد انفرد كل كتاب منها باسم جوهرة من جواهر العقد» .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

هذا هو كتاب العقد الفريد ، لقد فصّل صاحبه في مقدمته الكلام على غاية الأدباء ثم وازن بين المتقدمين والمتأخرين وفضّل الآخرين على الأولين وأتى على ذكر عناصر التفضيل ثم أشار الى مصادر كتابه المأخوذ من أفواه العلماء ، المأثور عن الحكماء والأدباء ثم وضّح طريقته في اختيار ما اختاره من الأخبار واختصار ما اختصره من الآثار ثم بيّن مذهبه في الفن ثم تكلم على غايته في تعميم الثقافة الأدبية ثم ختم المقدمة بذكر اسم كتابه وأجزاء هذا الكتاب .

وأظن أنه يهون علينا بعد هذا كله أن ندرك ما هو كتاب العقد الفريد . اذا كنا ندرس تاريخ الأدب فانا نجد في العقد الفريد أصولاً نهتدي بها في دراسة هذا التاريخ لأن فيه أخباراً وآثاراً مختلفة تبدأ من الجاهلية وتنتهي في عصر ابن عبد ربه ، ولكنّ صاحبه لم يتوخّ شيئاً من هذا كله وانما أراد أن يهيئ لأهل عصره هذه الأخبار والآثار حتى تغزر بها مادّتهم الأدبية ويزيد بهذه المادة عذوبة اللفظ وسهولة البنية وإحكام المذهب ووضوح الطريقة وشرف الجوهر وظهور الرونق وجزالة اللفظ وحسن الديباجة وكثرة الطلاوة والحلاوة .

لو اخترنا في عصرنا هذا جملة من آثار الأدباء أكنا نجري في اختيارنا على طريقة ابن عبد ربه ، ان الأدب الحديث ينكر هذه الطريقة ، فان الذين يجمعون آثار الأدباء أو ينتخبون من هذه الآثار طائفة يجمعونها في كتاب يجرون في انتخابهم على أصلين :

إما انهم يتبعون عصور الأدب ، فيأخذون من كل عصر شعراءه وكتّابه وخطباءه وعلماءه وأدباءه المشهورين ثم ينتخبون من هذه الطبقات كلها أحسن كلامهم وعلى هذا الشكل نحيط بتسلسل عصور الأدب وبخصائص هذه العصور .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

وإما انهم يتبعون تسلسل الفكر فيبدؤن مثلاً بالشاعر الذي ابتكر مذهباً من المذاهب ثم يذكرون الشعراء الذين مشوا على آثاره أو الشعراء الذين نقضوا هذا المذهب وعلى هذا الوجه نلمُّ بتسلسل الفكر وبانتقاله من طور الى طور على تراخي الأيام .

واذا أردت أن أضرب مثلاً لذلك فاني أضرب المثل الآتي .

ان المتعارف ان أبا نواس هو الذي فتح باب الخمريات في الشعر ولكن أبا الفرج الأصبهاني يردُّنا الى الصواب ويدلنا على حامل اللواء في وصف الخمر حين يقول : وللوليد في ذكر الخمر وصفتها أشعار كثيرة قد أخذها الشعراء فأدخلوها في شعرهم سلخوا معانيها وأبو نواس خاصة فانه سلخ معانيه كلها وجعلها في شعره فكرَّرها في عدة مواضع منه .

فاذا كنا نضع كتاباً في انتخاب جملة من أشعار المتقدمين ونشير في هذا الانتخاب الى وصف الخمر فانا نبدأ بشعر الوليد ثم بشعر الشعراء الذين أخذوا معانيه وأدخلوها في شعرهم حتى نرى بأعيننا تسلسل هذا الشعر وانتقال المعاني فيه من طور الى طور .

شفيق جبري

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net